الثورة
www.althawranews.net
الاربعاء 29 صفر 1435هـ 1 يناير 2014م العدد 17940
Wednesday : 29 Safar 1435 - 1 January 2014 - Jssue No. 17940

صنعائي: ثنائية التاريخ والعشق

ريا أحمد

الكاتبة الأديبة نادية الكوكباني من أكثر الكاتبات إخلاصا للكتابة، وهي صفة قلما نجدها بين الكاتبات اليمنيات، فحرص نادية على مواصلة الكتابة جعلنا نحن جمهور قراءها ننتظر منها بشغف أعمالاً أدبية متنوعة، قد نتفق وقد نختلف معها، ولكنه الاختلاف الذي لا يفسد للود قضية ولا ينقص من محبتنا وإعجابنا بها. نادية الكوكباني كاتبة يمنية من الطراز الأول لها ثلاث روايات: (حب ليس إلا)، صدرت عام 2006م، ورواية (عقيلات) 2011، ورواية (صنعائي) 2013، بالإضافة إلى خمس مجموعات قصصية ترجمت إلى لغات أجنبية.

في روايتها الأخيرة (صنعائي) تفوقت الكوكباني على نفسها وسردت قصة حبيبين جمعتهما معشوقة واحدة هي بطلة الرواية (مدينة صنعاء). ما كان للروائية أن تكتب عن مدينة صنعاء بتلك الشفافية والروحانية لولا شغفها بالمدينة وبتاريخها، الذي قدمته لنا بطريقة شيقة وسلسة، واجتهادها في البحث عن الكثير من تفاصيل المدينة وتاريخها كان واضحاً، إضافة إلى أن تخصصها العلمي (هندسة معمارية) أعطى الرواية فسحة جمالية متميزة بوصف منازل صنعاء القديمة وأزقتها وبساتينها وسورها القديم. يبدو شغف الكاتبة ومحبتها لمدينة صنعاء واضحاً من خلال عنوان الرواية (صنعائي)، دلالة على ملكية الشيء ومعرفة كل تفاصيله.. فيصير وكأنه جزء لا يتجزأ من الذات.. هو تملك الحبيب للحبيبة، والعاشق للعشيقة، وهذه العلاقة الشفافة تبدأ بالعنوان ولا تنتهي بانتهاء الرواية.

«صبحية» البطلة الساردة في الرواية بالتناوب مع بطل الرواية حميد، عاشت في دولة أخرى هي مصر، وهو المنفى الاختياري الذي اختاره والدها المناضل لظروف ظلت سرا حتى قبل انتهاء الرواية. ليست «صبحية» الساردة فحسب، وإنما هي العاشقة حتى الثمالة لمدينة صنعاء، ولم يؤدّ بعدها عن عشيقتها صنعاء والعيش في دولة أخرى أن يبهت أو يخفت ذلك الحب العظيم: صنعائي كانت في صندوق، لكن القاهرة كانت مدينتي الحرة التي تضخ الدماء في شراييني. اكتشفت أن لي مدينتين ولهجتين وطنيين في سن مبكرة». الرواية التي صدرت عن مركز عبادي للدراسات والنشر 2013 تقع في 288 صفحة من القطع المتوسط، تنقسم الرواية إلى اثني عشر جزءاً بدون أرقام أو عناوين، ولكن بمدخل بسيط لكل جزء، تتحدث عن مدينة صنعاء بطريقة سلسة لا تبتعد عن موضوع الرواية. حميد هو بطل الرواية الذي تربطه بصبحية علاقة حب، جوهرها تماهيهما في حب مدينة صنعاء، كما أن تاريخهما متشابهة إلى حد بعيد، فكلاهما والده كان من ثوار صنعاء ضد فلول الملكية البائدة لآل حميد الدين في صنعاء. اجتهدت الكاتبة في البحث عن تاريخ صنعاء في فترة زمنية حرجة، وهي فترة حصار السبعين يوما كما اجتهدت في البحث عن تفاصيل لا يعرفها الكثير عن مدينة صنعاء القديمة: «بعد الأحداث في أغسطس 1968 التي سأحكيها لك الآن، ويحلو لي أن أسميها «أحداثاً لعينة» غيرت وجه اليمن الذي كنا نحلم به..» لم يكن التطرق إلى أحداث تاريخية في الرواية يمثل عبئاً على الرواية، حيث تم سرد الأحداث على لسان أبناء أبطال الثورة (صبحية-حميد-غمدان)، ولم تترك الروائية فرصة إسقاط ما حدث في ماضي اليمن على حاضره بطريقة رشيقة وغير مباشرة؛ فكان حديثها هو الحديث الذي يعرفه الكثير من اليمنيين ولا يفضلون الخوض فيه، حديث عن ظلم كبير وقع لرجال الثورة الصادقين الذين قدموا أرواحهم رخيصة فداء ليمن جديد، لتكون النتيجة خروج الفئران من جحورها لتتحدث بكل جرأة عن أدوارها البطولية الزائفة. الرواية رغم رومانسيتها المطلقة في العلاقة التي ربطت بطلة الرواية ببطلها، تحمل ألغاماً موقوتة، وحنقاً من ماض يمد ظلمه وبطشه لحاضر اليمن اليوم. رواية تكشف الأسرار بطريقة ذكية ورشيقة شيقة، فالحديث عن حصار السبعين يوماً وتهميش الضباط الأحرار الذين قاموا بواجبهم بكل إخلاص تجاه اليمن، ومن ثم اغتيال الرئيس الحمدي الذي كان يسير باليمن نحو الدولة المدنية الحديثة، ليغتالوا بقتله حلم اليمن بدولة لها استقلاليتها ومواردها الخاصة ونهضتها التي قتلت قبل أن تولد أحاديث مثلت مسار الرواية وجوهرها. «صنعائي» رواية يمكن أن نصفها برواية الأسرار، أسرار المدينة والحب والشهوة واللذة، كما هي أسرار صنعاء، المدينة التي يأتي إليها السياح من كل حدب وصوب، لدفئها وخصوصيتها المذهلة، هي رواية عشق إذن لمدينة على كثرة محبيها وعشاقها إلا أنها المظلومة بجبروت الأنظمة وببريق الحداثة والتطور الذي بات ينهش خصوصيتها بكل شراسة. أخيراً لعل الرواية بتفاصيلها وأحداثها المتشعبة عن حكاية صبحية وحميد وغمدان، فضحت الكثير من الاختلالات التي تتجذر في اليمن واليمنيين ككل. إذن نحن أمام دعوة مفتوحة لمن يحب صنعاء ليعشقها أكثر، ومن لا يعرفها ليذوب حبا وهياماً فيها، فسحة تاريخية رومانسية قدمتها لنا الكاتبة بكرم باذخ تستحقه مدينة صنعاء ومحبها. بقي أن أقول إن الروائية نادية الكوكباني الحاصلة على الدكتوراه في الهندسة المعمارية، لم تبخل علينا بوصف صنعاء بطريقة فريدة ومتميزة، فهي مهندسة برتبة روائية وهي الأكثر ذكاء في دمج إبداعها الأدبي بمجالها الأكاديمي، وهذا المزيج أخرج لنا عملاً فنياً راقياً بامتياز.

زيارة سابقة

سهير السمان

صباحٌ مُرهَق انتزع حقه في العودة، بعد أن تخبط في أحلام طويلة تائهة، لا ألوان فيها، كفيلم سينمائي قديم، وعدت عنوة معه أيضاً، بعد تجوال طويل في شوارع ذاك الزمن، كثيرا ما كنت أعتنق صلواتها في الماضي، لكني ليلة أمس بحثت فيها عن طفلة مازالت تنتظرني لأكمل معها لعبتنا المعتادة عصر كل يوم، وكأنها تنتظرني بعدما سرت طريقاً طويلة، الطريق تطول ..وتطول حيث سكنها القديم الذي كانت فيه قبل سنين، وعندما تبين أمامي، عادت فساتيني القديمة وأحذيتي في بلوغ نشوتها، وعاد كل ما كان هنا، ماتزال تلك الشجرة تمد أغصانها وأوراقها خارج سور الحوش، ضوء نافذة واحدة فيه فقط وسط هذا الظلام، وقفت أرن جرس الباب الخارجي عدة مرات لكن لا فائدة. وعندما استدرت لأعود سمعت صوتها يناديني، حينها بدء أول خيط للصباح، فخرجتْ من المنزل وهي تقبض على خمس من الأحجار في كفيها، وتقول: لقد جئت باكراً لننهي لعبتنا! كنت خائفة أن تسافري اليوم قبل أن ننهي تحدينا.

ضحكت للهجتها القوية، لم تكن كذلك أبدا، يبدو أنها تدربت على اللعبة جيداً، كنت أفوز دائما عليها، وتعود لتلعب من جديد حتى تحقق الفوز، تفرح كثيرا بي عندما أجيء أنا وأسرتي من العاصمة إلى هنا لقضاء بعضاً من الإجازة الصيفية في بيت جدي المجاور لهم، كنت أراها بريئة جدا لا أصدقاء لها، والدها العجوز يمنعها دائما من الخروج، يُحمِّلُها مسؤولية البيت، وهي لم تتعد العاشرة من عمرها بعد، يقسو عليها، ويؤنبها في أغلب الأوقات، تنتهز فرصة خروجه من البيت في العصر لتلعب قليلا بتلك الأحجار معي، تنتقل مع كل حجر تقذف به، وكأنه طائر يحملها معه، تقول لي أثناء لعبها: أحسدك لأنك تخرجين دائماً وتلعبين إلى غروب الشمس، لا أحد يحملك عمل البيت، لماذا لا يكون والديَّ مثل والديك، تذهبين للمدرسة، وتسافرون في الإجازة، وتخرجين خارج المنزل بمنتهى الحرية دون أن تتعرضي للتأنيب والضرب!

أحس بحزن شديد لأجلها، فهي محرومة من حياتها، كنت أحبها، فهي على الرغم من حالتها الصعبة، كريمة جدا وحساسة، تقدم لي دائما ما تقوم بطباخته، فهي تتعلم يوميا الطبخ، في ذلك الصباح قدمت لي الخبز مع الشاي الحليب، كان طعمه ممتزجا بالطفولة بدأنا باللعب، كان جسدها يتحرك بفرحة مع كل حجر تقذفه للأعلى، تسابق الوقت، حتى تكمل اللعبة قبل أن يأتي أبوها العجوز.. ويراها خارج المنزل، فيهوي بعصاه على رأسها، مرات عديدة أسال منه الدماء، لقد كان قاسيا، لم يكن يعلم أنه يدنس قداسة الأطفال، يمنعهم من صلوات البداية مع الله، فالعصا حرزه لتعليم أولاده الحياة، قالت لي يوماً أنها حاولت كسر تلك العصا، لأن الشيطان مختبئ فيها، تراه يطل منها كلما هوى بها عليها أو على أحد من إخوتها، حتى أمها المريضة "بالمس" على حد تعبيرهم، حين تنتابها حالة هستيرية يستعمل أبوها العصا ليسكتها، كنت أسألها دائماً ...لماذا أمك صغيرة جداً في السن عن والدك، فهو عجوز؟

لم تكن تستطع الإجابة عن هذا السؤال.. كانت تقول لي: إن أمي مجنونة، وقد دخل بها جني، فهي تصيح وتبكي وتثرثر مع نفسها، وعندما تشتد عليها هذه الأعراض يضربها أبي بالعصا حتى يهدأ الجني بداخلها.

- ولماذا لا يأخذها للطبيب أفضل ؟

- لقد ذهبوا بها إلى ذلك الشيخ الذي في قريتنا، فكان يكوي رأسها بالنار، إلى أن تفقد وعيها، ويقرأ عليها القرآن، وينفخ في أذنيها. تصل أمي جثة محمولة بلا وعي.. تنام إلى اليوم الثاني، وتصحو ووجهها ممتقع أصفر، يقوم أبي عند الفجر، يحلب لها من الشاة بعض الحليب ويقدمه لها، يذهب بها إلى الحمام ليجبرها على الاغتسال، وهي تصيح، تخرج من الحمام وقد ارتدت عدة أثواب عليها، وتغطي وجهها، وتفرش السجادة وتصلي.

- تصلي وهي مغطية وجهها؟

- نعم.

- لماذا؟

- حتى لا يراها الجني.

- هل ما يزال داخلها حتى بعد أن أخذوها إلى الشيخ؟

- نعم يخرج ويعود لها ثانية ...وثالثة ..تقذف الحجر هذه المرة ويسقط من يدها ،ويبدأ دوري في اللعبة، تتابع حركاتي بإعجاب، وتهمس لي: أنت خفيفة جداً، تلعبين بكثرة فلديك وقتاً كبيرا للتعلم.

أحس بالغرور لإطرائها لي، وأحس بالحزن لأجلها. استمر في اللعب وهي تثرثر بتركيز على الأحجار. وتقول

- أحجارك جميلة من أين ألتقطها؟

- من صنعاء.. عندما ذهبنا منطقة جبلية تدعى شبام كوكبان، فهناك أحجار جميلة، من الجبال تجرفها السيول.

- هل تجلبين لي منها عندما تأتين في الزيارة القادمة؟

- سأترك لك هذه قبل أن اسافر.

- حقاً.

- نعم...إنها لك

علت الفرحة وجهها ...وكأن كنزاً ستمتلكه. . لم نكمل اللعبة عندما رأت ظل والدها عائدا من المسجد، نهضت بسرعة وهي تقول: سأذهب الآن لأعد طعام الإفطار لأبي قبل أن ينهرني.

سأعود إليك بعد الظهر لنكمل اللعبة إذا لم نسافر.

استيقظت مع حنين لتلك الأيام بعد أن أنستني السنين لعب الأحجار، رحلة كنا نقطعها بين الرمية والأخرى، اشتعال ضوء بين أصابعنا، وانتهاء اللعبة بعد اجتياز الأحجار لبوابة العبور. للعالم الآخر.

بدد اليوم الذي أشغلني حلم الليلة الماضية، وبقي حنين متوهج داخلي لأعيد زيارة قمت بها في حلمي، لتكون حقيقة علني أجدها تنتظر لنكمل اللعبة، خمس ساعات من السفر وصلت بعدها للمدينة، لقد هجرتها سنين بعد حب عبدته طفولتي، توجهت لمنزلها فهو لم يتغير، بل هي من رحلت عنه، وعبرت البوابة للعالم الآخر، تاركة الأحجار تشهد على زيارتي لها .

عبارات حيرىٰ

فيصل البريهي

دَهْراً وما زالتِ الدُّنيا تُراودُهُ
عن نفسهِ...كلَّما استعفى تُعاودُهُ
كم أبرمتْ نحوهُ كيداً وما عَلِمتْ
بأنَّهُ فوقَ ما يرجوهُ كائدُهُ
وهي التي كم تجلَّتْ في مَفاتِنها
مِن مُغرياتٍ بها ظلَّتْ تُطاردُهُ
ومِن شِباكِ الهوى المجنونِ كم نَصَبتْ
لهُ الإثارتِ ما فيها مصائدُهُ
تسعى لإغرائِهِ دوماً فَيَخذلُها
فتنثني ولَها عينٌ تُراصدُهُ
تُجري مُحاولَةً أُخرى وما يَئِستْ
أن تستجيبَ لها يوماً مواجدُهُ

○○○○

يا ويحَهُ صائماً عن حُبِّ عاشقةٍ
في صدرِها الشَّوقُ قد فاضتْ موائدُهُ
كم داعَبتْهُ كما لو أنَّهُ وتَدٌ
مهما استثارتْهُ لم تَجْنَحْ هوامدُهُ
مِن أينَ تأتيهِ «رومانسيةٌ» وبهِ
مِن الأسى ما عليهِ قَلَّ حاسدُهُ ؟!
يمسي ويُصبحُ في همٍّ وفي ضجرٍ
ممّا على الأرضِ مِن هَولٍ يُشاهدُهُ
أيَّامُهُ في حشاها كلُّ فاجعةٍ
لم تأتِ إلّا بما فيهِ مناكدُهُ
تأتي لياليهِ حُبلى بعد أن عَقِمتْ
تمخَّضتْ بالذي ساءتْ موالدُهُ
كلُّ الكوابيسِ والأشباحِ إنْ حضرَتْ
ضاقتْ بهِ مِن على الدنيا مراقدُهُ

○○○○

فكيفَ للعشْقِ أنْ يغشى الفؤادَ على
ما فيهِ مِن ألمٍ مُضْنٍ يُكابدُهُ ؟!
لا يَسكُنُ العشْقُ قلباً في جوانِحهِ
أدنى شعورٍ...وفيهِ ما يُضَادِدُهُ
وأمْقَتُ العشقِ ما لانَ الفؤادُ لَهُ
ولم يَلِنْ للأسى والحُزنِ جامدُهُ

○○○○

كم سافرَ الشِّعرُ في معناهُ مُنْتهِجاً
دربـاً يُقرِّبُهُ ممَّا يُباعدُهُ
يطوي المسافاتِ سعياً كلَّما اقتربتْ
آمالُهُ ابتعدتْ عنهُ مقاصدُهُ
كلُّ العباراتِ حيرى في متاهتهِ
كقاصرٍ في زمانٍ ضلَّ راشدُهُ

○○○○

ينمو كَبَذْرِ الأماني في مواسِمِها
واليأسُ باذرُهُ زرعاً وحاصدُهُ
سحابُهُ مِن دُخانِ الحُلْمِ تُمطِرُهُ
يأساً...ونهرُ الأسى بالحزْنِ رافدُهُ
يستنجدُ الشَّمسَ ظلاً والهجيرَ ندىً
والرملَ مِن ظمأٍ ماءً يُناشدُهُ
يبكي كطفلٍ غريبٍ ماتَ مِن ظمأٍ
أمامَ عينيهِ في الصحراءِ والدُهُ
يمشي وحيداً على جَمرِ الضياع وفي
أحشاءِهِ ضِعفُ ما تُبدي تناهُدُهُ
قد أثْقَلَ الهمُّ والأحزانُ كاهلَهُ
في قفرةٍ ليسَ فيها مَن يُساعدُهُ
كلُّ اتِّجاهاتِهِ نارٌ وأدخنةٌ
والحزْنُ سائِقُهُ فيها وقائدُهُ
في قلبهِ كلُّ آلامِ الحياةِ وما
خارتْ قواهُ ولا كلَّتْ سواعدُهُ

○○○○

ما أكئبَ العيش والإنسانَ في وطنٍ
والبؤسُ أزْوَجُهُ سُوقاً وسائدُهُ
في وجههِ الجهلُ والإرهابُ ما برحتْ
في كلِّ شبرٍ بهِ تُبنى قواعدُهُ
لم تشبعِ الحربُ مِن أشلاءِ مُجتَمعٍ
ألقتْ بأوزارِها فيهِ عقائدُهُ
للقتل أضحى مزاداً لا مُناقصُهُ
أوفى ضحاياهُ سِعراً أو مُزائدُهُ

○○○○

وما سُوى الشِّعرِ في دُنياهُ ما نضِبتْ
مصادرُ الهَمِّ عنهُ أو مواردُهُ
كم شاعرٍ في حناياهُ الهُمومُ رَبَتْ
فيها وشاختْ ولم تَهرَمْ قصائدُهُ
ما زالَ يعزفُ آلاماً مموسقةً
موّالُها...تُطرِبُ الدنيا مَغاردُهُ
ناياتُهُ ملءُ سمعِ الدَّهرِ صادحةٌ
ألحانُها كلَّما استشرتْ شدائدُهُ
لن يخفُتَ الضوءُ في عينيهِ ما بَقيتْ
على صُدورِ المَدى تزهو قلائدُهُ

الثلاثاء 2013/12/17م - صنعاء

إصدارات

جبران حداثة عربية

صدر حديثاً عن المنظمة العربية للترجمة ببيروت كتاب: "جبران حداثة عربية: ذاتٌ تتكون وأدبٌ يتجدد" تأليف بطرس الحلاق، ترجمة جمال شحيّد وإياس الحسن.

صيغَ هذا الكتاب بالفرنسية مرّتين، الأولى كأطروحة دكتوراه دولة في الآداب والعلوم الإنسانية من السوربون، والثانية، بعد تعديل مهم، بحلة كتابٍ صادرٍ عن دار "أكت سود" (Actes Sud) وأُعيد النظر في بعض أجزائه وقت ترجمته إلى العربية ليصدر بهذه الطبعة العربية التي تُهدى للقارىء العربي.

يتناول الكتاب جبران في رؤيته الإنسانية وحساسيته الذاتية في السياق الأدبي العربي الذي انغمس فيه من رأسه إلى أخمص قدميه، بصفته شاهداً على إشكالية ثقافية متعددة الوجوه، لا نزال نعالجها حتى اليوم جوهرها: مَنْ هو الإنسان العربي، أي العربي بالثقافة أياً كان انتماؤه الديني أو الإثني أو القطري أو الأيديولوجي؟ وكيف يتكوّن في عصر الحداثة، أميناً لذاته التاريخية ومخلصاً لمستقبله الإنساني المنفتح على الاحتمالات جميعها. لذا نرى جبران يقترح نهجاً ويشقّ طريقاً من دون أن يتقرّد بحقيقة، يكفيه أنه مبدعٌ اهتدى إلى مسرب من مسارب الذات العربية إلى الحداثة، ومن ثم العالمية ليُغني الثقافة العربية ويوجه المبدعين من بعده إلى بعض منابع الإبداع. يقع الكتاب في 496 صفحة.

الجاليات العربية في اسبانيا

صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت كتاب الجاليات العربية في إسبانيا للدكتور عبد الواحد إكمير.

يقدم هذا الكتاب قراءة موسّعة لأوضاع الجالية العربية في إسبانيا، مسلِّطاً الضوء على تطور الظروف الاجتماعية والاقتصادية لهذه ال جالية والصعوبات التي تعترضها هناك. يتناول الكتاب عبر ستة فصول متتالية مسارَ الهجرة العربية إلى إسبانيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ ثم التطور العددي لأبناء الجالية، والإطار القانوني للهجرة العربية منذ انضمام إسبانيا إلى الاتحاد الأوروبي؛ والهجرة السرية للشبان العرب إلى أوروبا عبر إسبانيا؛ ويتطرق إلى التوزيع الجغرافي للجالية العربية في هذا البلد؛ كما يسلط الضوء على ظاهرة الـ"موروفوبيا" وأسباب انبعاثها مع تزايد الهجرة العربية، ثم نتائجها الاقتصادية والاجتماعية. كما يتناول موضوع مغاربة مدينتي سبتة ومليلية منذ بداية الهجرة إليهما إلى الوقت الحاضر، والأسباب التي تحول دون اندماجهم الاجتماعي والاقتصادي والديني.

يحتوي الكتاب خمسة فصول إلى جانب المقدمة والخلاصة العامة والخاتمة.

الفصل الأول: "التطور العددي والإطار القانوني للجالية العربية في إسبانيا"؛ الفصل الثاني: "الهجرة السرّية وهجرة القاصرين غير المصحوبين"؛ الفصل الثالث: "التوزيع الجغرافي والنشاط المهني للجالية العربية في إسبانيا"؛ الفصل الرابع: "الجالية العربية في المجتمع الإسباني"؛ الفصل الخامس: "مغاربة سبتة ومليلية".

يقع الكتاب في 381 صفحة.